# آليات التأويل في بناء المعنى

الباحث محمد ولهوص
طالب باحث بسلك الدكتوراه
مركز الدكتوراه الإنسان والمجال المتوسطي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط
المغرب

**ملخص المقال:**

ينطلق هذا المقال من سؤال ما فتئ أن طرح منذ القدم وشكل محور بحث لدى مجموعة من الباحثين من مجالات معرفية متعددة وهو كيف يتم بناء المعنى، ليس من منطلق كونه معطى لغوي يستقر خلف العبارات وتسعف القواعد اللغوية في استخلاصه، ولكن من منطلق ان المعنى عملية إدراكية واسعة تروم بناء فهم سليم لكل مظاهر الإبداع الإنساني بما فيها النص مما يمكننا من إدراك المعنى الشامل للوجود والتاريخ والإنسان. والتأويلية او ما يصطلح عليها بالهيرمينوطيقا حاولت تقديم إجابات متنوعة على هذا السؤال والتي حاولنا صياغتها من خلال عرض التوجهات المنهجية التي اقترحها ممارسو التأويلية في هذا الشأن.

**الكلمات المفتاحية بالعربية:**

التأويلية–الهيرمينوطيقا –المعنى–النص–القارئ–التجربة الوجودية.

نص المقال:

## آليات التأويل في بناء المعنى

سنحاول رصد آليات التأويل وشروط قيام المعنى انطلاقا من فرع معرفي محدد يسمى التأويلية HERMENEUTIQUE. وهو علم يهتم بعملية الفهم عن طريق وضع قواعد تخص شكل او أو كيفية التعامل مع النصوص على حد تعبير غادمر [1]

ويحدد أبو زيد القضية الأساس التي تتناولها التأويلية بالدرس هي **تفسير النص بشكل عام، سواء كان هذا النص نصا تاريخيا، ام نصا دينيا. كما ان الأسئلة التي تحاول التأويلية الإجابة عنها هي أسئلة كثيرة معقدة ومتشابكة حول النص وعلاقته بالتراث والتقاليد. الأهم من ذلك أنها تركز اهتمامها بشكل لافت على علاقة المفسر بالنص. وبما أن النص ينفتح على عوالم ممكنة فإن التأويلية اشتغلت حسب رأيي على علاقة القارئ باللغة والعالم.** [2]

من هذه الجهة فالتأويلية تشتغل على إشكالية لا تبتعد عن الإشكالية العامة للفلسفة و هي علاقة الذات بالموضوع أو علاقة الإنسان بالعالم.و هذا ما جعل المهتمين بالتأويلية يعاودون النظر في مفاهيم فلسفية من قبيل " الزمن «و"التاريخ" و" التجربة و " الذات" و تناولها في اطار إشكاليات الفهم و الوعي وفي هذا السياق نستحضر كلام طه عبد الرحمان الذي يفصح فيه بشكل جلي عن" **أخص ما يميز النظر التأويلي هو عنايته بمختلف الظواهر الإنسانية ،الخطابية منها و غير الخطابية جاعلا منها جميعا نصوصا تقبل القراءة و التحليل و الاستنطاق مقابلا بين المنهج المناسب لهذه الظواهر الإنسانية وهو "الفهم"،و بين المنهج المناسب للظواهر الطبيعية و هو "التفسير" بمعنى أن الأثر الإنساني يفهم ولا يفسر، في حين أن الأثر الطبيعي يفسر ولا يفهم"3**

لفهم طبيعة المقدمات الإبستيمولوجية والدعائم التصورية التي تتأسس عليها التأويلية في بناء احكامها. سنقف عند ثلاثة توجهات نظرية هي: التوجه المعرفي /الإبستيمي التوجه الوجودي/الأنطولوجي والتوجه التأملي.

### التوجه المعرفي /الإبستيمي

يمثل هذا التوجه شلايماخر الذي يعد من مؤسسي وواضعي أسس التأويلية أو علم الهيرمينوطيقا كما يسميها. إذ يرجع إليه الفضل في تأسيس هذا العلم، ونقل مجال تداوله من علم اللاهوت إلى علم يشمل مختلف نواحي الممارسات الإنسانية. وأولها الممارسة الخطابية. بحيث أضحت التأويلية تشمل كافة ميادين العلوم الإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وفلسفة الجمال والنقد الأدبي والفولكلور.[4]

إن القضية الأساسية التي بنى عليها شلايماخر تأويليته هي مفهوم الزمن والتاريخ من خلال تساؤله عن كيفية التغلب على الفارق الزمني الذي يفصل بين بين فعل القراءة وفعل الحدث، أي حدث توليد النص.

إن التأويل كممارسة قرائية فهمية يسعى من جهته إلى التغلب على مشكل عنصر الزمن وخرق المسافة التاريخية بين زمن كتابة النص وزمن قراءة النص.

من هذه الزاوية يعتبر التأويل عملية محاورة وتواصل بين مرحلتين زمنتين حيث يسعى القارئ الى بناء متوالية فهمية قادرة على بعث روح الصيرورة التاريخية له وضمان فهم الآخر من خلال من خلال التداول مع خطابه وهو ما صرح به شلايماخر عندما قال بأن التأويل هو فهم الآخر.

إن التأويل بهذه الصورة التصورية يرتكز على ثلاث مكونات أساسية هي النص وقائل النص والقارئ الذي يحاول بناء فهم انطلاقا من إعادة بناء عملية وعي بالذات الإنسانية من خلال نصوصها وثقافتها وتقاليدها.

وحسب شلايماخر فإن بناء المتواليات الفهيمة يمر عبر مستويين تأويلين: هما مستوى التأويل النحوي أو الموضوعي الدي يستند الى الخصائص العامة للخطاب بما فيها المستويات القاعدية اللغوية. ومستوى التأويل النفسي الذي يهتم بتجربة مؤلف النص مع فحوى المعنى الذي يريد إبلاغه. وحسب شلايماخر فإن هذا المستوى الثاني يبقى تخمينيا لأنه لا يخضع لقواعد مضبوطة. وهو ما دفعه إلى وضع مسار منهجي لتجنب المخاطر التي يمكن أن يسقط فيها القارئ. ويقوم هذا المسار حسب شلايماخر على التوفيق بين الموضوعي والفردي أثناء التأويل من خلال قراءة النصوص بناء على استراتيجية قرائية تقوم على الدعائم التالية:

**الدعامة اللسانية**

تتصل هذه الدعامة اتصالا وثيقا باللغة وخصوصا بقضية الكتابة التي تعتبر المحطة الأولى لاكتشاف المعنى. ذلك أنها تمثل المكون الأساس للحفاظ على النص من الضياع الذي قد يتعرض له بفعل الزمن.

وحيث إن كل مكتوب يتشكل من علامات ورموز لغوية، فإنه من الواجب على القارئ/المؤول أن ينطلق من هذه الرموز والعلامات لأنها تمثل الوعاء الذي يخفى داخله المعنى كما إنها تشكل في الوقت نفسه منافذ يمكن من خلالها الإطلال على المعنى. وانطلاقا من ذلك فإن النص في تصور شلاماخريعد وسيطا لغويا ينقل فكر المؤلف إلى القارئ وأن اللغة وسيلة تحدد للمؤلف طرائق التعبير التي يختارها للتعبير عن فكره. وانطلاقا من هذه الأطروحة فإن مهمة القارئ/المؤول الأولى هي الوقوف عند لغة صاحب النص لمعرفة كيفيات استعمالها في خطابه وذلك بهدف الكشف عما يسمى البنية النصية للمؤلف التي ليست شيئا آخر غير الخصائص التركيبية والخصائص التداولية تعد هذه الخطوة ضرورية لبناء فهم جيد لخطاب الآخر. وهو ما وضحة شلايماخر عندما قال ان القارئ/المؤول يحتاج إلى موهبة لغوية والى القدرة على فهم عميق للطبيعة الإنسانية.

**الدعامة النفسية**

لاستكمال العملية التأويلية يلزم قارئ النص، إلى جانب قراءة القراءة اللغوية للنص لاستكشاف نصية مؤلفه اللجوء الى مستوى آخر في قراءة النص هو المستوى النفسي الدي يطمح من خلاله المؤول الكشف عن الخصائص النفسية والإحاطة بالظروف والملابسات التي أنتج فيها النص أو التي عاشها مؤلفه. ويتجلى دور هذه الدعامة، حسب شلايماخر في الوصول إلى بناء نسق فهمي قادر على إدراك البنيات النفسية الثاوية خلف النص والتي قد تكون ساهمت في إنتاجه.

**الدعامة التاريخية**

تقوم هذه الدعامة حسب شلايماخر على مفهوم التاريخانية. وهو يلعب دورا مهما في بناء الفهم وتشكيل المعنى. فالنص يمثل جزءا من حياة مؤلف النص، وعلى القارئ أن يقف عند هذا الجزء التاريخي الثاوي خلف مذكورات النص. ومن هذا المنظور اعتبر شلايماخر هذا الجزء بمثابة الحلقة التي ينبغي الحفر فيها من اجل تخطي المسافة الزمنية الفاصلة بين تاريخ كتابة النص وتاريخ قراءة النص.

**التوجه الوجودي أو التاريخي**

صاحب هذا التوجه هو دلتاي Dilthey صاحب كتاب عالم العقل Le monde de L'esprit وقد ركز ابحاثه في مجال التأويلية على قضية تتعلق بكيفية فهم الذات الإنسانية. وقد اقترح لذلك سبيلين معرفيين هما: التاريخ وعلم النفس.

فمصطلح التاريخ يكتسي أهمية بالغة عند دلتاي لأنه حسب تصوره يمثل ماضي الإنسانية ويمكن في الوقت نفسه من بناء فهم أفضل للتجربة الإنسانية وذلك من خلال اختزال زمني في الماضي والحاضر فمفهوم التاريخ حسب دلتاي يشكل جسرا رابطا بين الحاضر وتجاربه المعاشة والماضي وتجاربه المعاشة. ويزيد أبو زيد توضيحا لهذه النقطة بقوله **"إننا في كل عصر نفهم الماضي فهما جديدا من خلال التعبيرات الباقية لنا، ويكون فهمنا للماضي أفضل كلما توافرت شروط موضوعية «.** [5]

وينطلق دلتاي من التعبيرات باعتبارها حاملة لتجارب تاريخية يمكن إعادة بناء وتشكيل فهمها بحسب شروط الفهم التاريخي الذي يتحقق عن طريق مقارنة تجربة قائل النص بتجربة قارئ النص ذلك أن الوعي بالذات رهين باكتشاف تجارب الآخر التي يجسدها آثاره المكتوبة وبالتحول إلى مرحلته التاريخية والامتثال لنفس تجاربه النفسية والمعرفية، وذلك كله من أجل تحقيق معرفة موضوعية بالأشخاص وفهم جيد للذات.

**التوجه التأملي/ التحاوري**

يمثل هذا التوجه الفيلسوف الألماني غادامر Ga damer من خلال كتابه "فن الفهم" L'art de comprendre

وقبل أن نعرض لنموذجه التأويلي ينبغي أن نقر بأنه يصعب الإمساك بالقضية الأولى التي يؤسس غادمر عليها اقوال في مجال صيرورة الفهم كعملية إدراكية. وترجع هذه الصعوبة الى طبيعة المفاهيم المعبر بها عن فكره والتي يصعب تحديد مقاصدها. هذا بالإضافة الى ان غادمر وسع المجال المعرفي والإبستيمي لعلم التأويل L'herméneutique وجعله يتقاطع ويتجاور مع علوم متعددة كعلم النفس والتاريخ واللسانيات والأنطولوجيا والفلسفة.

يتصور غادمر التأويل عملية فهمية مكونة من مجموعة من الأفعال وهذه العملية ليست مبنية على قواعد تعصم من سوء الفهم كما فعل شلايماخر أو منهج تاريخي يعيد بناء التاريخ. إنها عملية تطمع لفهم حقيقة العلوم الإنسانية بكل تجلياتها.

انطلاقا من هذا المعطى يعيد غادمر طرح تصور جديد للتأويل يقوم على الارتكاز على مفهومين اساسين. هما: **"الفن" و "التاريخ"** الذين يمثلان تجربتين وجوديتين مرتبطين **"بالوعي الجمالي" و "الوعي التاريخي".** وهاتين التجربتين هما اللتان على القارئ أن يكتشفهما ويفهمهما.

إن الفن والتاريخ يكتسيان أهمية كبرى في فلسفة غادمر التأملية باعتبارهما يشكلان حقيقة تعبر عن تجارب الأشخاص والشعوب والأمم والتي لا ينغي النظر إليها في استقلال عن الوعي الذاتي، بل كتجربة تاريخية مشتركة بين المؤول وصاحب النص. على أساس مفهوم الحوار الذي يقترحه غادمر لفهم التاريخ والتراث.

وبناء على مفهوم "الحوار «فإن غادمر يدعو الى أن تكون علاقة المؤول بالتاريخ علاقة قائمة على الجدل والحوار الذي يتأسس حسب اعتقاده على اللغة التي تأخذ في التأويلية التأملية بعدا تحاوريا يتجاوز دورها التعبيري عن الوجود الخارجي إلى جسر تتحاور داخله الذات والعالم من أجل أن يندمجا في كيان فهمي واحد يشكل فيه القارئ والنص طرفين حواريين. [6]

إلى جانب هذه المفاهيم يوجد مفهام آخر اقترحه غادمر وهو مفهام " الأحكام المسبقة" Les préjugés الذي ليس شيئا آخر غير معاني أو أسئلة أولى يطرحها القارئ ويحاول إحياءها اثناء عملية فهم التراث. ويلعب هذا المفهوم دورا مهما في تحطيم المسافات الزمنية التي تبعد لحظة زمن التأويل عن لحظة كتابة النص كما انه يساعد المؤول على إمكانية الكشف عن جواب جديد على سؤال تم طرحه سابقا. ومن تم يكتسي الخطاب أو النص سيرورته الفهيمة واستمراريته التاريخية. وفي هذه النقطة يتفق غادمر مع أستاذه هايدغر اللذان يتفقان على ان الهيرمينوطيقا هي بحث في التاريخ عن نفس السؤال [7]

**خاتمة**

لقد قدمت النظرية التأويلية آليات تصورية ومسالك منهجية لممارسة عمليتي الفهم والتفسير منطلقة من السؤال التالي: كيف يستطيع القارئ بناء فهم سليم للذات الإنسانية. وقد اقترحت الهيرمينوطيقا للتصدي لهذا السؤال، جهاز مفاهيمي متكامل يستند إلى مجموعة من العلوم التي اهتمت بالمعنى وكيفية بناءه من منطلق التاريخ والتجربة واللغة. وذلك ما حاولنا إبرازه في هذه المقالة التي وقفنا فيها على ثلاثة توجهات كبرى في التأويلية مع عرض الدعائم النظرية والمنهجية التي يرتكز عليها كل توجه في كيفية ممارسة عملية القراءة وبناء المعنى وادراكه.

**الهوامش:**

[1] Gadamer : L’art de comprendre: 49

[2] نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص3

[3] طه عبد الرحمان: فقه الفلسفة: الفلسفة والترجمة 38

[4] نصر حامد أبو زيد: القراءة وآليات التأويل ص13

[5] يراجع بخصوص هذه النقطة مؤلف ديلتي " عالم العقل le monde de l’esprit p320 ونصر حامد أبو زيد القراءة وآليات التأويل ص 28

[6] Gadamer : vérité et méthode 330

[7] يراجع كتاب الوجود والزمان وخصوصا الصفحة 28 التي يقول فيها هايدغر «كل سؤال بحث وكل بحث يستمد من الشيء الذي يبحث فيه.."وهذه القولة استعملها غادمر بنفس المعنى عنما قال: «الشرط الأولي للتأويل هو الفهم المسبق الذي ينشأ عن الاهتمام بنفس الشيء". يراجع كتاب غادمر الحقيقة والمنهج. ص134--13